العربية الفصحى في خير

بقلم اديب قعوار

« رغبة في الوصول الى موقف محدد واضح لخير اللغة العربية » ، لا بل لخير كياننا القومي العربي ، ارى من واجبي لفت النظر الى بعض المغالطات العلمية التي جاءت في مقال الدكتور عبد العزيز الاهواني « العربية الفصحى في حرج » وهي بعض بديهيات اعجب كيف ان الدكتور الاهواني لم ينتبه اليها ، او كيف جوز لنفسه تجاهلها .

اني لأتساءل : باي حق يقرر الدكتور ان العربية الفصحى اليوم في حرج ، وهي لم تكن كذلك حتى في عصر الانحطاط عندما تألبت عليها قوى الإستعمار التركي ، محاولة طمس معالمها وازالة مقومات الكيان العربي المستقل . فقد غالبت العربية الفصحى الزمن وتغلبت على الدهر وهذا دليل قوي على حيويتها .

ومع ان الدكتور الاهواني لم ينس الفرق بين العصر الذي تمر فيه العربية الآن والعصر الذي مرت فيه اللاتينية الا انه لم ينتبه الى اهمية هذا الامر . ولو انه فعل لما رأى موجباً او مبرراً لكتابة مقاله هذا . فالعصر الحديث بمختلف وسائله ومخترعاته كفيل بأن يحقق امنية الدكتور بزوال الازدواج في اللغة العربية ، ولكن بالاتجاه نحو الفصحى لا بانحلالها . فان ما حققته المدنية الحديثة من سرعة وسائل النقل اتاح للكثيرين التنقل بين اجزاء الاوطان الواحدة بسهولة وبسرعة ، مما زاد في تقارب المواطنين وتفاعلهم وتفهمهم للهجات بعضهم ، هذه اللهجات التي يسميها الدكتور « لغات » . هذا ولا ننسَ عوامل الاتصال اللغوي مثل الاذاعة والصحافة والكتب والتعليم . وكل هذا سيكون من نتيجته تهذيب اللهجات المحلية وتقريبها نحو الفصحى حتى يزول الفرق نهائياً بعد فترة من الزمن لا يمكن تحديدها .

والحق ان الازدواجية لم تخل منها لغة من اللغات . ولو كانت نهاية كل لغة الى مثل التمزق الذي يتنبأ به الدكتور لكانت العاقبة اوخم مما قد يتصور . والفوارق بين مختلف اللهجات العربية تتضاءل امام الفوارق القائمة في الكثير من اللغات ، ومنها الافرنسية والالمانية ، وهما لغتا امتين من آصل امم الارض قومية في معناها الحديث . فنرى سكان شمالي كل من فرنسا والمانيا يجدون صعوبة ليست بالقليلة لتفهم لهجات الجنوب في كل منهما .

تصوروا ان كل لهجة في كل لغة من لغات الارض اصبحت لغة قائمة بذاتها ، فسيصبح لكل قرية في العالم ولكل حي من مدنه لغة خاصة لها ادبها ونحوها واعرابها . افيستطيع احدنا ان يتصور هذه البابل الهائلة التي يخبئها لنا المستقبل اذا صحت تصورات الدكتور ؟

واحب ان اوجه نظر الكاتب هنا الى حقيقة بسيطة ، هي ان الفارق بين اللغات القومية التي كانت تشارك اللاتينية الحياة قبل موتها وبين اللهجات العربية الحالية ، هو ان الاولى كانت قد تطورت بشكل اصبحت معه لغات منفصلة عن اللاتينية ؛ وكان الناس لا يستطيعون فهم اللاتينية الا بعد درسها كلغة اجنبية . ولكن هل كان هذا ينطبق على العربية في اي زمن من الازمان التي مرت فيها ؟ لا شك ان الجواب هو النفي .

هذا فضلاً عن ان الامم الاوروبية في فترة احتضار اللاتينية كانت تمر في عصر تكوين قومي متين خلق منها امماً كاملة المعالم ، على عكس الشعب العربي ذي التكوين القومي التام وان لم تأخذ وحدته القومية شكلها السياسي بعد .

يقول الدكتور : « خيّل الي ان روح العبودية الكامن في صدورنا ، وان قوة الرجعية في العالم العربي ، والخوف من الجديد ، والفزع من الحرية ، وضعف الثقة بالنفس ، هو الذي حال بيننا وبين ان نصنع بالعربية ما صنع الاوروبيون باللاتينية . واعتقدت ان الشعب الجاهل المظلوم هو صاحب الحق الاول في تقرير مصيره اللغوي ، لا ارادة له ولا صوت يعبر عنه ، وكان موقفه من العربية الفصيحة اجلالا ورهبة من جانب ، وسخرية واستهزاء من جانب آخر . وهو في الجانبين جميعاً ضعيف الصوت تابع لا متبوع . وان يوم اليقظة لقريب . اليوم الذي يبطل فيه سحر المتشدقين والمتفيقهين والمتفصحين فيسقطون وتسقط معهم

بيان من « الآداب »

•

تعلن مجلة « الآداب » الى المتعهدين والمشتركين والوكلاء ان جميع المعاملات المتعلقة بها قد اصبحت من حق صاحبها ومديرها المسؤول ورئيس تحريرها الدكتور سهيل ادريس . فالرجاء الرجوع اليه في كل ما يتعلق بالتحرير والادارة والاشتراك .

لغتهم ويرجع التراث الى اصحابه الحقيقيين ، وهنـــاك يختفي الاعراب وتختفي نون النسوة وتختفي اشياء واشيـــاء ليحل محلها الشيء الجديد المتطور .. » ثم يتحدث عن عدم سمـــاح العلماء بتدريس الآداب العامية والقصص القديمة في الجامعات لكون لغتها ركيكة . ويستطرد قائلاً : « اقول اعتقدت ان الروح الجامد لهؤلاء العلماء هو الذي ينشر الرعب والحرج باسم الدين او القومية او الوحدة او المجـــد الغابر فيتضاءل امامه المثقفون وغير المثقفين » .

هذا ما جاء في فقرة من مقال الدكتور الاهواني . ونحن نتساءل : احقاً يرجع السبب في بقاء العربية الفصحى الى رجعية العرب وتغلغل روح العبودية فيهم ؟ لو صح ذلك ، لمـــا رأينا العرب يقاومون الاتراك ومحاولتهم تتريك لغتهـــم وطمس معالم المجتمع العربي ، فمن كمنت في نفســه روح العبودية لا يثور ولا يقاوم . كما انه لا يتأثر عندما يحاول احدهم حرمانه من مميزاته القومية الخاصة ، ومن اهمها اللغة . وهذا ايضاً يتعارض مع عدم الثقة بالنفس الذي يتهم الدكتور العرب به . والحقيقة ان اللغة العربية مع هذا سيطرت على اللغة التركية واصبح الكثير من مفرداتها وقواعدها واسلوبها جزءاً من اللغة التركية .

نعم لقد نظر العرب الى لغتهم نظرة اجلال ولكنها لم تكن نظرة رهبة ، بل بالعكس كانت نظرة محبة وتقدير لشيء ثمين يجب المحافظة عليه وتطويره وانماؤه . واحب ان الفت نظر الدكتور الى ان من كان ينظر الى شيء ما نظرة اجلال لا يمكن ان ينظر اليه نظرة سخرية ؛ ففي هذا تناقض فاضح لا يجوز ان يأتي في بحث علمي . واني اعجب كيف ان الشعب الغافل وهو حقاً صاحب الحق في تقرير مصير كل ما يمت اليه بصلة ، اعجب كيف يمكن ان ينظر الى لغتـه نظر سخرية واستهزاء وهو غير مؤهل لجهله للحكم عليها ؟

ان اليقظة آتية لا ريب ، ولكن فعلها سيكون على نقيض ما ذكر الدكتور ، اذ ان هذه اليقظة ستكون نتيجة لتثقف الشعب ، وهذا التثقف سيقوي صلة الشعب بلغتـه الصحيحة ، العربية الفصحى وستكون النتيجة كما ذكرت سابقاً .

وهذه اليقظة وهذا التثقيف سيوضحان المفاهيم القوميـة في ذهن الشعب وسيدفعانه نحو العمل في سبيل الوحدة العربية وليس في هذا حرج ورعب ، بل شعور بالقوة والثقة بالنفس وتحمل المسؤولية الملقاة على عاتق هذا الشعب . وهـذا من حسنات اليقظة والوعي القومي .

ثم انني اطرح على الدكتور السؤال التالي : هل يعرف حضرته لغة راقية لا قواعد ولا نحو فيها ؟ اعتقد جازماً انه لن يستطيع ان يقدم على ذلك مثلاً واحداً . فكيف يمكن التخلص من الاعراب وهو تحليل الكلمات بالنسبة الى الجمل والنظر فيما لو كانت تنطبق على هذه القواعد وهذا النحو ؟

اما بالنسبة لنون النسوة و « الاشياء والاشيـاء » فلن اتعرض لهذا البحث ، فان بعض هذه المشاكل سيحلها تطوير اللغة وتسهيل قواعدها . وهذا الشيء لا علاقـة له البتة في نظري ببحوث اللغة . فان تطوير لغة من اللغات يتم بماشاتها للزمن واشتقاق تعاريف او كلمات حيث امكن او اقتباسها عن غيرها من اللغات ، ولن يضير هذا اللغة العربية ، فهي لا تختلف عن باقي لغات الارض .

واود ان اقول ونحن لا نزال في معرض البحث عـــن

القواعـد والاعراب ان رجوع الكثيرين من الكتـّاب الى القواعـد او الى غيرهم من الكتـّاب لتصحيح كتاباتهم لا يشكل نقصاً او ضعفاً في تكوين اللغة العربية . فان ملكة الكتابة الادبية الصحيحة لاتتوفر لكل انسان ولا حتى لكل مثقف . وهذا لا يقتصر فقط على اللغة العربية بل يتعداها الى كل لغة من لغات الارض . فالقضية قضية موهبة تقوى عن طريق المراسلة والمطالعة . ولو لم يكن الحال كذلك لما وجدت الفوارق من ناحية الانشاء الفني بين الادباء والكبار منهم ايضاً .

اما قول الدكتور ان بعض الفنون لم تغزه اللغة العربية على حد تعبيره ، فهو في رأينا اما مغالطة او سوء تعبير ، ولعله وقع في الخطأين معاً . فالفصحى عرفت طريقها الى كل من السينما والمسرح . ولا يهمنـا ان نلفت النظر الى هـذه الحقيقة بقدر ما يهمنا ان نلفت النظر الى ان لكل لغـة ازدواجها ، وازيد على ذلك ان كل لغة من لغات الارض التي عرفت المسرح والسينما تستعمل فيها العامية والفصحى ، وان كانت العامية اكثر استعمالاً في كل من هذه اللغات .

واعتقد ان الدكتور قد شاهد على اقل تعديل شريطاً سينمائياً اميركياً واحداً ولاحـظ ان الممثلين لا يتكلمون الانجليزية الفصحى بل بالشكل الذي يتكلم به عادة الناس في اميركا ، ولكن بشكل مهذب يترك المجال للجميع بان يفهموا ما يقال لكون الاميركيين والانجليز يتكلمون لهجـات مختلفة . وهذا ما يفعلونه في السينما العربية ايضاً .

واود ان اشير اخيراً الى فائدة نقطة مهمة اشار اليهـا الدكتور كمال الحاج في محاضرته القيمة « اللغة والقومية » ، وهي تعليم مختلف العلوم في المدارس على مختلف المستويات باللغة العربية . واعتقد ان في هذا الحل الجذري لقضية توسيع وتطوير استعمال اللغة العربية في مجال العلوم والطبيعية منهـا بشكل خاص . واذا ما وضع هذا في موضع التنفيذ سينشط العلماء الى سد الفراغ الحاصل في التعاريف والمصطلحات العلمية عن طريق الاشتقاق والاقتباس . ولا اعتقد ان اللغة العربية تعجز عن تحمل هذا فقد برهنت في تاريخها الطويل عن اهليتها ومرونتها كلغة عالمية الى جانب كونها لغة ادبية .

اديب قعوار

فلسطينيّة نازحة

•

لا وحق الحب لن أخلف عهدا
وحنيني رفّ ريحاناً ووردا
انا للثأر وللطفل المفدّى
فارسي في حومة الحرب تردّى
إنه للغمرة الحمراء يهدى
ولدي بين اليتامى وغداً يشتد زندا
قال يوماً لرفاق الصفّ اني أتحدى
ان امي صقلتني واعدتني فرندا
انا للثأر ولن اخلف عهدا
الف بركان بقلبي ليس يهدا
انما الظالم في الدار استبدّا
انا لا اعرف يافا بلدتي بالروح تُفدى
انها في قلب امي عبقت طيباً وندّا
وهيام في مداه الطلق لا يعرف حدا
وهي في مقلة امي بحنان الحب تندى
واجبي يا امّ بالروح يؤدّى
عربي كأبي اقتحم الساحات فردا

دمشق — **عزيزة هارون**